ذكورتهنّ: راهبات مدرستي "غنمزي زقئم نزهلإ ة لخيل"

(إستعادة حالة من خلال الذاكرة)

مارلين نصر

لم يُثِر موضوع الذكورة /الرجولة إهتمامي في البداية، ذلك أنّني، منذ الصغر، لا أُحبّذ التمييز بين أدوار الإناث والذكور على الصّعيد الإجتماعي على الأقلّ.

نشأتُ في بيئة عائليّة مدينيّة تَعلّمَ نساؤها في مدارس راهبات فرنسيّات (Besançon)، كانت تُعتبر آنذاك، في أيّام الإنتداب الفرنسي، من أفضل المدارس لتنشئة "بنات العيَل". وبالرغم من تربيةٍ يمكن اعتبارها "حديثة" بمعايير تلك الفترة، كانت أمّهاتنا، "المتحرّرات فكريّاً"، يقُمنَ بالأدوار التقليديّة المنوطة بهنّ: زيجة باكرة، إنجاب فوري وتربية أطفال، إهتمام بالزوج، إطعام و تغذية وإدارة شؤون المنزل، حسن ضيافة، إتقان لغة أجنبيّة و قدرة على التحدّث في المناسبات الإجتماعيّة. وبالتالي كان معظم نساء عائلتنا الممتدّة لم يعملْنَ خارج البيت، ولا أتذكّر إلاّ استثناءً واحداً هي ابنة عمٍّ لأمّي، اضطرّت أن تتوظّف بعد انفصالها عن زوجها المقامر، وكانت تُعتبر استثناءً وتتمتّع بشخصيّة فريدة كانت أقرب إلى شخصيّة الرَجُل من حيث النبرة واستقلاليّة القرار والتصرّف. وكان الجميع مُعجب بها ويدعو الله أن يردّ عنها في غمار مسارها الصعب.

أن أكون نصف امرأة ونصف رجل وأُنمّي شخصيّتي دون التخلّي عن أفضل ما في الدورين، هذا ما حاولتُ وحاولتْ الكثيرات من جيلي أن يبلغنه. وهذا ما كان مجتمعنا يطلبه ضمناً منّا في السبعينات والثمانينات. وقد أصبح عالم اليوم يطلب أكثر من ذلك من بناتنا....

كما أمّي وخالاتي، أُرسلنا نحن البنات إلى مدرسة راهبات فرنسيّات (Franciscaines) كانت تُعتبر في الخمسينات من أفضل المدارس الخاصّة الكاثوليكيّة. إذاً لا شيء في تنشئتي البيئيّة والمدرسيّة يوحي بذكورة ما أو برجولة، كان أبي الرجل الوحيد في بيتنا، إذ لم تحظَ أمّي إلاّ بأربع بنات كنت ثالثتهنّ. ولا المدرسة كان فيها رائحة ذكور، إذ لم يقطنها أو يتردّد إليها إلاّ إناث، من راهبات ومعلّمات وتلميذات ويتيمات. فكيف حصل أنّه عندما طُرح موضوع الذكورة للإستكتاب، لم يحضر إلى ذهني سوى مدرستي وراهباتها!

*أشكر الصديقة رشا الأمير لمراجعتها النص والمساهمة في تحسينه. أشكر أيضاً العزيزة فاديا حطيط لتشجيعي على الكتابة الحرّة وللملاحظات التي قدّتها لي حول المضمون.

ما تذكّرته هي جملة كانت تردّدها لنا مديرة المدرسة "مير[1] باسكال". جملة أخذَتْ ترنّ في أُذني "كُنَّ رجالاً" (soyez viriles!). كانت تقولها لنا بنبرة قويّة وبحركة نهوضٍ للرأس والكتفين، واستقامة الصدر، وبضمّ أصابع اليد الخمسة ورفعها إلى فوق، وكأنّها كانت تريد منّا ان نكون مثل الرجال، "كنَّ رجالاً" أي تسلّحوا بصفات الرجولة أنتم أيّها البنات. وفهمت معنى كلمة "viriles" ،غير الشائعة آنذاك في "لغتنا" الفرنسية، بدون أن أبحث عنها في القاموس.وفهمت من هذه النصيحة الملحّة أنّه يجب ألاّ أكون منفعلة أو "رخوة" وأن أضبط مشاعري، أي ألاّ أكون شديدة الأنوثة. وكانت مدرستنا تعمل، إلى جانب التربية المسيحيّة، على تنشئتنا ضمناً وعلناً على سلوك ظاهري وقيَمي، وقواعد تكلّم وتصرّف تؤدّي إلى محو معالم أنوثة غير مرغوب بها، وإدخال بعض صفات وسلوك "رجولة" كان من المستحسن أن نتبنّاها.

I. <u>محو معالم الأنوثة وصفاتها البارزة</u>:

المفارقة أنّ هذه المدرسة التي كان يطغى عليها العنصر النسائي ، كانت تتبنّى وتطبّق قواعد لتهذيب سلوك ومظهر أعضائها وروّادها، تؤدّي الى محو أو طمس أُنوثتهنّ. فكانت تخلق تعارضاً بين سلوكنا وسلوك أمّهاتنا وخالاتنا وجدّاتنا ، تعارض بين قيمنا وقيم جيلين من النساء السابقين لجيلنا.

أوّلاً من حيث العدد، كانت المدرسة التي تعدّ أكثر من ألف وخمسماءة أنثى، لم تضمّ إلاّ عدداً محدوداً جداً من الذكور : سائقي الباصات، نجّار أخرس، ورجلا دين، أحدهما الأب شكري، كبير في السنّ، يعلّم مادتي الأدب العربي والفلسفة في الصفوف الثانوية، وثانيهما خوري، مشرف على تعليم اللغة العربية ومسؤول عن الصف الثانوي الأخير. كانت أدوار جميع هؤلاء هامشية، لا يؤثرون بشيء في القرارات ولا في إدارة المدرسة.

إذاً بالرغم من طغيان عدد الإناث على كافة المستويات، فإنّ العديد من القواعد المفروضة على سلوك الراهبات ومظهرهنّ وسلوكنا نحن التلميذات ومظهرنا، كانت تؤدي إلى محو معظم معالم أنوثتهنّ والكثير من معالم ومظاهر أنوثتنا.

[1]- "مير" تعريباً لـ mère التي لا يمكن ترجمتها بكلمة "أمّ" لأنّها لا تعني الأمومة، بل تُستخدم لتسمية الراهبات امتثالاً بأمّ الله مريم العذراء.

لنبدأ بهنّ: كانت ببساطة كلّ مظاهر الأنوثة في أجسادهنّ، محجوبة عن النظر، إذ لم نرَ منهنّ إلاّ اليَدين ودائرة الوجه، منقوصة من الجبين والأذنين وما تحت الذّقن. فالحجاب الأبيض الطّويل والثوب الأبيض، "والمريال" الحافظ من الأوساخ، كانت تغطّي وتثقل أجسادهنّ المدفونة تحت ثلاث أو أربعة أطواق من الثياب. كانت هذه شبيهة بثياب نساء النبلاء في قصور القرون الوسطى الأوروبيّة التي نشاهدها الآن في الأفلام التاريخيّة. قد اعتمدتها الرهبانيات التي تأسّست آنذاك في المجتمعات الأوروبيّة (وهي تصلح بلا شك للطقس البارد) ونقلتها فيما بعد إلى كافة أنحاء العالم من أفريقيا وآسيا وشرقنا الأوسط، بعد انتشارها من أوروبا إلى كافة أنحاء العالم في القرن التاسع عشر والعشرين[2].

وكانت كافة الألوان غائبة عن مظهرهنّ ما عدا الأبيض والرمادي.

وبالرغم من كون راهباتنا تحملنَ ألقاب "المير" و"السور" أي بالعربيّة "الأم" و "الأخت"، إلاّ أنّهنّ لم يمارسنَ أيّ سلوك أو دور من سلوك وأدوار الأمومة أوالاخوّة. فلا تعبير في وجوههنّ ولا في كلامهنّ ولا في حركتهنّ لأيّ نوع من أنواع العاطفة الأموميّة أو الأخويّة . وخلال 13 سنة أمضيتها في المدرسة، لم تلمس يدنا الصغيرة أو الكبيرة أياً من أيديهنّ، ولم نسمع أيّة عبارة عطف أو حنان في كلامهنّ لنا. هذا لا يعني أنّ كلامهنّ كان جافاّ أو قاسياً إنّما كان فقط محايداً، لا تنتابه العاطفة أو الألم أو الإنفعال الشديد إلاّ عندما يأتي على ذكر المحبة الإلهيّة أو عاطفة أمّ الله مريم، وواجبنا في محبّة البشر، ربّما لئلاّ تختلط المحبّة الروحيّة بالمحبّة العاطفيّة الحسيّة.

إذاً لم تمسك أية منهنّ يدي ولا كتفي ولا حتى ربتت على رأسي كما كان يفعل جدّي الذي كان معروفاً بقساوته وقلّة التعبير عن مشاعره.

أمّا نحن التلميذات فكانت مظاهر أنوثتنا الفتيّة أقلّ طمساً من أنوثتهنّ. كان يُفرض علينا، أُسوة بتلميذات مدارس الراهبات الأخرى في كافّة أنحاء لبنان وربما العالم، الزيّ الموحّد "الكوستيم" (costume)، موحّد في الشكل وفي اللون وفي القماش: زيّ صيفي أزرق لكلّ يوم وأبيض للمناسبات، وزيّ شتوي كحليّ لكافة المناسبات. يغطّيهم "مريال" لونه بيج في صفوف الإبتدائي. وكانت كافّة الألوان ممنوعة في لباسنا، فيما عدا الأبيض والرمادي والأزرق والكحلي. كان "الكوستيم" هذا يغطّي الركبتين والذراعين في الصيف (نصف كمّ) وفي الشتاء (كمّ طويل). أمّا شعرنا فكان يفترض بنا أن نهذّبه ونتحاشى "المُوَض" الخارجة عن التقاليد أو الملفتة للنظر، إذ كان بوسع الراهبة

[2]- وبدأت بعض الرهبانيات إنطلاقاً من ثمانينات القرن العشرين تختصر هذا اللباس الثقيل وغير العملي وتخفّف من وطأته تقصيراً في الثوب وفي الأكمام واختصاراً للطرحة التي تحوّلت إلى غطاء بسيط للرأس بعد ان اقتنعت الكنيسة أنّ خدمة الله لا تحتاج إلى كلّ هذا العذاب الخارجي، وأنّ تكريس الوقت والنفس لخدمته وخدمة البشر كافيان، وأنّ تعذيب الجسد وقمعه لا يفيدان كثيراً في الإيمان ومحبّة البشر.

المسؤولة أن تطلب منّا تهذيب شعرنا أو ربطه إذا رأت أنّه يزعج حركتنا أو يلفت الأنظار أكثر من اللزوم.

أمّا أشكال الزخرفة والتبرّج من كحلة أو حمرة أو ألوان على الوجه أو على الأظافر، فكلّها كانت ممنوعة حتى لتلميذات صفوف التخرّج اللواتي لم يسمح لهنّ ارتداء كعب عالٍ أو كلسات نايلون، وكان عليهنّ الإلتزام بالزي الرسمي حتى آخر يوم من أيام المدرسة وفي حفلة التخرّج أيضاً.

عند بلوغنا سنّ النضج الجسدي، لم يطلب منّا أن نخفي صدرنا أو خصرنا، إذ كان "موديل" اللباس الموحّد كفيلاً بتغطية وخفي كلّ الملامح الفائضة والمستديرة في أجسادنا المتغيّرة. إذاً القاعدة غير المكتوبة كانت : التماثل والإحتشام وستر كل ما هو نافر وملفت للأنظار.

أمّا على صعيد السلوك والكلام المسموع كانت القواعد المفروضة علينا شبيهة بالقواعد المفروضة على الراهبات: عدم لمس بعضنا مثل قبض الأيادي أو "الشنكلة"، أو العبط بالخصر أو بالكتفين، كما كانت العادة جارية في قرانا بين الفتيات أو حتى بين النساء الكبار عندما كُنَّ يتمشّين أو يجلسن مع بعضهنّ بعضاً. ولا حتى التقبيل على الخدّ بعد غياب طويل. كل هذه العادات الطبيعية في مجتمعنا الشرقي، والمحبّذة بين أفراد الجنس الواحد، كانت غير مرغوب بها في مدرستنا. فعندما كانت "المامير" تقول لنا أن "نستقيم" وأن "نسلك جيداً"، كنا نفهم أنّ المقصود هو أجسادنا، اللا نرتخي بل نتماسك ونبقى منفصلين عن بعضنا البعض، ملتزمين المسافة الكافية.

على مستوى التعبير، كان الكلام العاطفي والتعبير عن المشاعر يجلب الإستهزاء والسخرية على صاحبته. في الملعب، كانت معظم الألعاب مسموحة، تلك التي تلعبها الفتيات مثل "الإكس" و"الحُوّيْئة" و "الكعاب" والقفز على الحبلة، وكذلك الألعاب الأكثر خشونة مثل كافة أشكال ألعاب الكرة حتى العنيفة منها، مثل "الكرة الصائبة" التي لم أجرؤ على لعبها، وإن حاولت مرّات عديدة. فكنت أخشى أن أُصاب بضربة قويّة، في حين كانت معظم صديقاتي ورفيقاتي تنكبّ عليها بشغف كلّما رنّ جرس الفرصة! ولا أتذكّر أبداً أنّ أحداً منّا لعب "باللعبة" أو "بيت بيوت" أو لعب أدوار الأم أو الأب، ربما لاعتقادنا أنّ هذه الألعاب خاصة بدائرة المنزل والجيرة وإنه بالتالي لا مكان لها في المدرسة. وكان يُمنع منعاً باتاً الإنزواء في الملعب مع صديقة، في مكان لا يقع في مجال رؤية الناظرة، وكان الإخلال بهذه القاعدة غير المكتوبة يجلب على المخالِفات أشدّ العقوبات.

وكانت المدرسة التي تأسست في العشرينات قد أزالت من برامجها، انطلاقاً من الخمسينات، كلّ ما يتعلّق بالتربية المنزليّة التي خُصِّصَ لها في الفترة السابقة، فرعٌ خاص هو "المدرسة المنزليّة" (école ménagère) التي كانت تستقبل الفتيات اللواتي أنهين مرحلة الدراسة ورغب أهلهنّ

تحضيرهنّ لدورهنّ القادم الحتمي كربّات منزل. فكنّ يتعلّمن في هذه المدرسة الفرعيّة فنون الطهي وترتيب المنزل ورعاية الأطفال، وبعض الخياطة وحسن ترتيب المائدة، وكلّ ما ينفع في إعداد الفتيات للزيجة، ماعدا بالطبع ما يتعلّق بموضوع العلاقات الزوجيّة الذي ليس من إختصاص الراهبات أن يخضن به.

وفي أيامنا كانت "المدرسة المنزليّة" قد أُلغيت لأسباب أجهلها، ولم يبقَ منها في البرنامج الدّراسيّ العام سوى ساعة أسبوعيّة يتيمة لتعليم الخياطة، لم نأخذها بجدّ. وكانت تنتهي بانتهاء المرحلة الإبتدائيّة، وما أن نبلغ نهاية المرحلة الثانويّة حتى نكون قد نسينا تماماً ما تعلّمناه في هذا المجال في مرحلة الطفولة. ومع العلم أنّ أكثر من ثلثي بنات صفّي لم يعملّن بعد الدراسة الجامعيّة إلاّ كربّات بيوت وأمّهات، كانت البرامج الدراسيّة قد أصبحت في أيامنا خالية تماماً من أيّة مادّة أو نشاط يؤهّلهنّ لهذا الدور الأنثوي . فكما أنّ هذه المهام كانت متروكة في مدرستنا لبنات "البرناديت" (الأيتام) اللواتي كنّ يعملن في التنظيف والطهو والغسيل أو الكوي والعزيل،...كذلك كانت أعمال الخياطة والتطريز تتمّ في مشغل خاص (l'atelier) يشتغل فيه صبايا يأتين من قرى الريف اللبناني لتعلّم التطريز والخياطة واللغة الفرنسيّة. أمّا نحن التلميذات "بنات العيل"، فكنّا مثل راهباتنا، لا نضيّع وقتنا بالأشغال اليدويّة الملقيّة على عاتق نساء من بيئات إجتماعيّة مختلفة، بل ننصرف طوال أيام الأسبوع والسنة للأعمال الذهنيّة والعلميّة والأدبيّة، تماماً مثل إخواننا في مدارس الرهبان. وبالرغم من كون بعضنا يساعدن أمّهاتهنّ في الأعمال المنزليّة بعد إتمام الواجبات والفروض المدرسيّة، إلاّ أنّ معظم بنات مدرستي كان لديهنّ خادمات يُجلب معظمهنّ من الأرياف المجاورة أو البعيدة. كانت هؤلاء الصبايا "يتيتَّمْنَ" لبضعة سنوات في بيوت بعيدة عن بيوتهنّ، ويقمنَ بالأعمال التي كانت في الماضي من نصيب جدّاتنا، أو نساء أقربائنا الأقلّ يسراً، اللواتي كُنَّ يأتين من القرية لمساعدة ستّ البيت.

II. <u>ذكورة بلا ذكور :</u>

بالإضافة إلى لجم أو إخفاء بعض المعالم والسلوك الأنثويّة غيرالمرغوب بها، كان

لشعار "كنّ رجالاً" (soyez viriles) ركيزة تربويّة طبعت تنشئتنا بقِيَم وقواعد سلوكيّة يمكن اعتبارها تخصّ عالم الذكور والرجال في مجتمعنا آنذاك.

ذكورة بعض القيم في سلوك وكلام راهباتنا: بالرغم من ثقل طبقات الثياب على أجسادهنّ وحصار الحجاب لرؤوسهنّ وأعناقهنّ، أستطيع الآن وبعد مضيّ أربع عقود من الزمن، أن أقرأ في كلام وسلوك راهباتنا العديد من السمات التي يمكن اعتبارها أقرب الى عالم الذكورة والرجولة. وإنّ هذه القيم والقواعد السلوكيّة نقلتها لنا من خلال التنشئة الصارمة التي خضعنا لها في العقد ونيّف الذي أمضيناه في المدرسة.

إنّ النبرة وأسلوب التعبير في كلامهنّ كان أقرب الى نبرة وأسلوب جدّي المختصر والجاف والخالي تماماً من العواطف والمشاعر أو حتى المزاح، والذي كان دائماً في صغرنا يأتينا بصيغة الأمر أو الجزم أو التوبيخ، ولم يتّخذ ولا مرّة واحدة صيغة الحوار أو المحادثة الودودة. هذا جدّي، أمّا راهباتي، فكان تعبيرهنّ لا يخلو أبداً من التهذيب والكلام الموزون، ولدى بعضهنّ روح النكتة ودائماً الصبر، وإنما لم يفتحن لنا المجال في الأخذ والردّ، ربّما بسبب عددنا الكبير أو لحفظ المسافة بين الفريقين، نحن الكثرة والضوضاء والحيويّة، وهنّ الإنتظام والإستقامة والسلطة.

وبالإضافة إلى الإستقامة وشيء من القساوة تجاه الأوجاع وعدم الرضوخ للضعف والألم الجسدي، وعدم الشكوى من البرد والحرّ والجلوس المستقيم والعمل المستمرّ، والإصغاء وعدم الثرثرة، بالإضافة الى هذه القواعد السلوكيّة المشتركة بين معظم المدارس المماثلة آنذاك، تميّزت راهبات مدرستي بقيم يمكن اعتبارها ذكوريّة أو رجوليّة يمكن استشفافها من خطابهنّ التربويّ وسلوكهنّ اليومي. أهمّها ضبط الإنفعالات وعدم البوح بالعواطف علناً أو سرّاً، إستقلالية تكاد تبلغ مستوى الفردانيّة في الدراسة وفي إتمام الواجبات اليوميّة. كان علينا أن نخضع تراتبيّاً للراهبات معلمّاتنا، ثم للمديرة ثم للريّسة، خضوع راضٍ لا يحبّذ الإستثناء ولا يعذر الهفوات، حتى البسيطة منها.

أذكر في هذا حادثة وقعت ضحيّتها أختي الكبيرة. كنّا في حفلة نهاية الفصل الدراسي، مجتمعات في قاعة الإحتفالات الكبرى من كافة الصفوف المتوسطة والثانويّة، وكانت قد وُزّعت علينا كتيّبات طُبعتْ عليها الاغاني التي كنّا نحضّرها مع قائدة "الكورس" المديرة العامّة. وبعد انتهاء فترة التمرين، قامت مسؤولة الرياضيات "المير لويس"، التي كنّا نلقّبها سرّاً "بالستّ لويزا"، بجمع كتيّبات الأغاني لحفظها للجلسة القادمة. وبما أنها لم تستطع أن تدخل بين صفوف التلاميذ، كنّا نسلّم الكتيّبات للأقرب منا وصولاً الى يدها في أوّل الصف. وإذ بأختي الجالسة في وسط القاعة ترمي بكتيّبها من بعيد الى "مير لويس"، اختصاراً للمسافة. بدا الغضب الشديد على وجه "المير" الدائم

الإحمرار، فأصبح داكن اللون. إلتقطنا أنفاسنا أمام هذه الفعلة الشنيعة وجمدنا في أمكنتنا منتظرين العقاب. فصرخت مديرة الحفلة بأختي غير الواعية لما فعلته ووبّختها علناً واعلنت عن قصاصها: الطرد ليوم واحد من المدرسة بعد الإعتذار. لم تبكِ أختي بل هزّت كتفيها النحيتلين. أمّا نحن في الصالة، البعض منا شهق والبعض الآخر لم يفهم مذا جرى. إلاّ أنّه لم يعلُ أيّ صوت اعتراض على عقاب غير متوازن لفعلة عفويّة لم يُقصد بها عدم الإحترام.

الخشونة: أنوثتنا المسموحة تطعّمت بشيء من السلوك الذي كان تقليدياّ ملازماً لعالم الرجال. ذكرتُ أنّ الألعاب الخشنة لم تكن ممنوعة عنّا بل كانت الملاعب مهيّأة ليتسنّى لنا القيام بها. والرياضة الأسبوعيّة الإجبارية لم تختلف عن تلك التي يقوم بها الصبيان في مدارس الرهبان: القفز العالي وبالقصبة، التسلّق على الحبل، العدو السريع ،التنافس في رمي الأثقال، الجنباظ وكافة ألعاب الكرة. هذه التمارين التي أُدخلت في مناهج التربية في معظم مدارس البنات كانت غريبة تماماً عن الأنشطة الجسديّة التي كانت تقوم بها الصبايا أو النساء في مجتمعاتنا الريفيّة والمدينية.
والجدير بالإشارة أن وسائل الراحة والإسترخاء التي كانت متوفّرة في بيوت معظم تلميذات المدرسة (على ما أظنّ) لم تكن أبداً متوفّرة أو مسموحة في مدرستنا: فلا تدفئة في الشتاء حتى في الأيام الأقصى برداً، ولا تهوئة في أيام الحرّ، ولا حتى إمكانيّة تخفيف الملابس، كتقصير الأكمام أم قلع الكلسات. فمثلما كانت راهباتنا تخضع لنظام لبس صارم، كذلك كنّا نحن خاضعات لنظام مماثل.

ومن المفارقات والسمات التي يمكن اعتبارها تماهياً مع عالم القدوة ولو القديسين بينهم، أنّ راهباتنا اللواتي كنّ يغيّرن أسماءهنّ بعد الإنخراط في الرهبنة، كنّ يتّخذنَ أسماء قدّيسين ، توزّعت مناصفة بين القديسات الإناث والقديسين الذكور. لم أنتبه لها عندما كنت صغيرة، ربّما لعلمنا أنّه في عالم القديسين لا فرق بين الأجناس أو بالأحرى أن القديسين والملائكة ليس لديهم جنس محدّد، فلم يأتِ أي ذكر للجنس في الإنجيل الذي كنّا نقرأه وندرسه أكثر مما كنّا نقرأ التورات، ولم يُعار إهتمام للجنس في تربيتنا الدينيّة، وإنّ الفردوس والسماء كان ما فوق الاجناس. أمّا "جهنّم" فكان مليئاً بالغارقين في الملذّات والخطايا المرتبطة بجنسهم.. أمّا الآن عندما أعود أتذكّر أسماؤهن أجد الى جانب أسماء القديسات التي تكنّت بها "مير ماري" و "سور تيريز" و "مير بريجيت" و "مير ريتا" و "بياتريس" و"سور أندرا" و "سور كلير" و "مونيك"، إنّ أسماء القديسين الذكور كانت تفوقها عدداً : "مير القديس يوسف" و "مير القديس جيروم" و "مير القديس ميشال" و "المير باسكال" و "المير

الطفل يسوع" و "مير القديس ريكيه" و "مير القديس غينوليه" و"مير القديس لويس" التي كنّا نلفظه بصيغة المؤنّث "لويز" و "مير آنج" (ملاك الحارس) و مير "إليعازر".
بعض الأسماء كانت تصلح للجنسين مثل كلود ولويس/ز وباسكال وميشال، إلاّ أنني كنت أقرأها بالمؤنّث حتى لو كانت تخصّ قدّيساً مذكّراً. ما كان يشغلنا أكثر من أسمائهنّ المستعارة هو اختفاء أو سريّة أسمائهنّ الأصليّة الشخصيّة، وعندما علمنا فيما بعد بأسماء بعضهنّ الحقيقيّة، بعد أن تحوّلت المدرسة الى شيء آخر، انتابنا الفرح كأنّما تعرّفنا عليهنّ مرّة ثانية، وتقرّبنا منهنّ كبنات وإنسانات من جنسنا تحمل أسماء عاديّة مثل أسمائنا.
هل هذه القيم والسلوك وحتى التسمية كانت فعلاً ذكوريّة خاصة بعالم الرجال، أم انّها صفات وقيم وسلوك إنسانيّة متاحة للجنسين وإن كان في بعض الأحيان والمجتمعات يعتنقها هذا الجنس أكثر من الجنس الآخر ولا من موانع حادّة لاستخدامها واعتناقها إذا لزم الامر ودعت الحاجة الإجتماعيّة والثقافيّة.
إلاّ أن التصنيف السابق لم يقنعني تماماً، ذلك أنّني ذكرت في المقدّمة انني أتجنّب التصنيف في هذا المجال. قد أكون استخرجت بعض السمات من سياقها وجمعتها معاً لأصنّف راهبات مدرستي ونحن التلميذات، وأنا بالذات، في خانة أنوثة ناقصة وذكورة غير مكتملة أو مستعارة. فلذا سأتّخذ منظاراً آخر وأبتعد عن الأفراد لأنظر للموضوع من جانب العلاقات وبنية المؤسسة ، علاقات السلطة والعمل وطرق اتخاذ القرارات داخل الرهبنة. هذه العلاقات الداخليّة لم أعرف عنها إلاّ ما كان متاحاً لنا أن نتلمّسه من الخارج، أي من ملاحظتنا وعلاقتنا اليوميّة بهنّ في الصف وفي المناسبات العامّة في إطار ممارستهنّ للمهام التعليميّة والإداريّة ، من أعلاهن رتبة، المديرة أو الريّيسة، إلى أدناهنّ موقعاً، الفتيات الأيتام الصامتات، في قعر الهرم.

III. <u>هرميّة بطريركيّة واضحة المعالم</u> (hiérachie patriarcale)

لماذا أنعت هذا النمط الإداري "باليطريركي" وليس "بالمطريركي"، علماً أنّ الأم الرئيسة العامة هي التي كانت تقود المؤسسات الرهبانية الواقعة في نطاق مسؤوليتها الجغرافي. ربما لأنّ النموذج الأصلي للرهبانيات تأسس داخل أديرة الرهبان الذكور واتخذ تدريجياً مع تطور الكنيسة، الشكل الهرمي البطريركي، وإن أديرة الراهبات تأسست في ما بعد وتبنّت نفس الهيكليّة والنظام وإن

بلباس آخر ولجنس آخر. لذا رأيت أن أحتفظ بصفة "البطريركية" لأنعت شكل الإدارة التي أُحاول وصفها، بدلاً من ترجمتها الى "مطريركية"، خاصة إن وجود راهبات إناث في مراكز السلطة والقرار، كان مقتبساً في الأصل من نموذج ذكوري.

تكونّت الرهبانيات في البداية – في القرون الوسطى الأوروبية – على شكل أخوية يرعاها الأخ الأكبر وهو المؤسس الأول ومن يتبعه في هذه المهمة الرعائية، إلاّ أنّها تحوّلت في ما بعد تدريجياً، مع تحوّل المؤسسة الكنسية وتفرّعها وانتشارها الجغرافي، الى نظام هرمي تتدرّج السلطة فيه الى ما لا يقلّ عن 6 درجات من الرتب في ممارسة السلطة واتّخاذ القرارات ونوع العمل والألقاب:

فالأب الرئيس العام (لعدّة أديرة) ← تقابله الأم (مير) الرئيسة العامة.

والأب الريّس (في الدير الواحد) ← تقابله الأم (مير) الريّسة في الدير الواحد

والأب المدير ← تقابله الأم المديرة (على مستوى المدرسة)

والآباء المعلّمين ← تقابلهم الأمات المعلمات

والأخوان (فريرات) --> تقابلهم السورات (أخوات) في شتى الأعمال والأنشطة.

كنّا نحن التلميذات نقع مباشرة تحت سلطة أو مسؤولية الراهبات المعلمات وتحت إشراف مديرة المدرسة "المير ديركتريس"(directrice)، المركز الذي كانت تحتلّه في أيامي "المير باسكال". أمّا معلّماتنا المدنيّات فكنّ يخضعن مباشرة لمديرة المدرسة وينسّقن عملهنّ مع الراهبة المسؤولة عن المادة، والأب père préfet المسؤول عن تنسيق تعليم اللغة العربية. والبنات اليتيمات كنّ يخضعن للراهبات الأخوات (معظمهن سورات) المكلفات بإدارة وتنفيذ الأعمال غير التربوية في المدرسة.

ما كان يميّز الراهبات (الأمات) عن الراهبات الأخوات لم يقتصر على اللباس الخارجي الذي كان يختلف فقط في غطاء الرأس ، إذ كان غطاء رأس الاخوات (سور) بسيطاً شبيهاً بالحجاب أو الطرحة، في حين كان غطاء رأس "الأمهات" جامداً ومربعاً بشكل علبة. كان الإختلاف الأساسي بينهنّ في نوع العمل. لم تكن الراهبات الأخوات تعملن في التدريس ولا تشغلن مركز مسؤولية في إدارة المدرسة، في ما عدا استثناء واحداً هي راهبة (سور سينيور) كانت تعلّم الصف الأوّل إبتدائي. وتسرّب لنا أنها أرادت أن تحتفظ بهذه الرتبة تواضعاً منها وإماتة. فكانت هي المسؤولة عن تأسيسنا بالنطق واللفظ الجيد بالفرنسية والخط المستقيم . في ما عداها، كانت جميع "السورات" تقمن بالأعمال "المنزلية"، من طهو وغسيل وتنظيف وبستنة وبوابة ومسؤولة عن باصات المدرسة. وكنّ أيضاً

مسؤولات عن إدارة ورعاية الفتيات الأيتام اللواتي يقمن في جناحهنّ الخاص الذي لم نزره بتاتاً، ويعملن بعد ساعات الدراسة في شتى الأعمال المنزلية المذكورة أعلاه، تحت إشراف "السورات" أو من ينوب عنهن من اليتيمات "البرناديت" الأكبر سناً.

أما الأعمال الذهنية والفنية، من إدارة ومحاسبة وتعليم وأنشطة فنية من نوع العزف الموسيقي، وإدارة المسرح ورقص الباليه، فكانت من مسؤولية الراهبات الأعلى رتبة، "الأمّات" أو "مير" بالفرنسي. وكانت كلّ راهبة–مير متخصصة في تعليم مادة، سواء في الإبتدائي أم في الثانوي. ولم تكن تقفز من مادة الى إخرى بل تحتفظ باختصاصها وتطوّره على مدى فترة خدمتها في المدرسة، ولم تنتقل الراهبات من مدرسة الى أخرى أو من بلد الى آخر إلاّ نادراً. فكان الإستقرار في التخصص وعدم التدرّج من رتبة الى رتبة، هما القاعدة.

فالرئيسة العامة للرهبنة تبقى رئيسة عامة مدى الحياة وكذلك ريّسة الرهبنة الإقليمية، أمّا مديرة مدرستنا فلم تتغيّر إلاّ إذا كبرت أو تعبت أو رغبت بذلك وطلبت أن تعفى من المهام الإداريّة لتتصرف إلى التعليم. ولم يحصل ذلك إلاّ مرّة واحدة في فترة بقائي في المدرسة إذ حلّت "مير باسكال" الشابّة مكان "مير تيلدا" الأكبر سناّ في إدارة المدرسة. فالهرميّة كانت جامدة، قليلة التغيّر، ومعظم المراكز كانت لمدة الحياة العمليّة، كما هو الحال في الأنظمة الهرميّة التقليديّة.

وبالإضافة الى هذا المنحى التراتبي داخل الرهبنة، كان هناك منحى "طبقي" يفصل التلميذات الى ثلاث طبقات على الأقلّ، أنشأت الرهبنة لكل منها مؤسسة خاصة لا تتقاطع مع الأخرى إلاّ في بعض الخدمات المحددة. المدرسة الأولى مدرستي (مدرسة المتحف) كانت، بحكم أقساطها المرتفعة مخصصة لبنات الفئات الإجتماعيّة الميسورة (من الطبقة المتوسطة الى ما فوق) القادرة على تحمّل هذا المستوى من الأقساط وكافة المصاريف المصاحبة لها. والمدرسة الثانية لنفس الرهبنة تقع على مسافة عشر دقائق في حيّ السريان من الجانب الآخر من طريق الشام، خصصت لبنات الفئات الإجتماعيّة المتوسطة الى ما دون، ذوي العائلات الأقلّ يسراً. ولم يكن أيّة صلة أو علاقة بين المدرستين، فلا كنا نلتقي، ولا نعرف بعضنا بعضاً، ولا حتى نرى ولو مرّة واحدة راهباتهنّ أو معلّماتهنّ، لا في الأعياد الكبرى ولا في المناسبات والإحتفالات الخاصة.

أمّا الفئة الثالثة هي مجموعة البنات الأيتام المسمّاة "برناديت" (bernadettes) على إسم القديسة "بيرناديت" التي ظهرت لها مريم العذراء في مدينة لورد. كنّ يعشن في مبنى خاص على طرف

مدرستنا، ويدرسن بضع ساعات قبل الظهر في مدرسة حيّ السريان، مقابل القيام بشتى الأعمال "المنزليّة" في مدرستنا كالجلي في المطبخ والمساعدة في تحضير الطعام (للراهبات وتلميذات الداخلي ونصف الداخلي)، وغسيل وكوي وتنظيف الصفوف والملاعب والقاعات الكبرى والصغرى. كان لباسهنّ مختلفاً عن لباسنا مائلاً الى الرمادي. لم نلتقِ أبداً بهنّ وإن كنا في نفس الحرم. وكنّا نُمنع من التكلّم معهنّ، ربما لئلاّ نجرحهنّ أو نقيم معهنّ علاقات ستكون حتماً مربكة للطرفين، بسبب الإختلاف الكبير بين المستويات الإقتصاديّة والإجتماعيّة والأوضاع العائليّة. كُنّ بمثابة "الخادمات" الصامتات، خادمات الجميع، راهبات وتلميذات، ولم نشكرهنّ أبداً ولا مرّة واحدة للخدمات التي كانت تؤدّينها لنا، ولم نلعب معاً ولم نعرفهنّ إلاّ باسمهنّ الجماعي، "البرناديت".

IV . أنماط القيادة: من التقليديّة الى البيروقراطيّة الحديثة، مروراً بالكارزمائية.

الأصح أن أتكلّم عن قائدات أكثر ممّا أتكلّم عن قيادة، ذلك أنّ القيادة كانت تمارسها بشكل رئيسي الراهبة المسؤولة عن إدارة المدرسة: "المير ديركتريس" أي "الأم المديرة". تناوب على هذه المراكز خلال عقدين ثلاث راهبات من أجيال ثلاثة ، مارست كل واحدة منهن نوعاً من القيادة كناّ نعتبرها آنذاك ملازمة لشخصيّتها. أما الآن تبيّن لي إن التصنيف الثلاثي الشائع لماكس فيبير – قيادة تقليدية/قيادة كارزماتية/وقيادة بيروقراطيّة– ينطبق جيداً عليها.

- **قيادة المير تليدا التقليدية.**

كانت "مير تاليدا"، الأكبر سنّاً بين الراهبات، تحتل مركز مديرة المدرسة وأنا لا أزال في الصفوف الأولى الإبتدائية. لم أعرف عنها آنذاك سوى شكلها القاسي، ذقنها المروّس وشفتيها المنقبضتين كالشفرة، عينيها الحادقتين، لسانها اللاذع، و"جقرتها" الشهيرة. كانت قائدة صارمة من النوع التقليدي، تعالج الأمور بالغضب الشديد والتوبيخ العلني والعقاب[3].

سأذكر في هذا السياق حادثة حصلت لي معها وكنت لا أزال في بداية سن المراهقة، في الصف الأول أو الثاني المتوسط . كانت المرّة الوحيدة التي تعرّضت فيها لعقاب علني وتشهيري مارسَته عليّ هذه المديرة السابقة.

[3]- ومن نفس النمط والجيل كانت "مير آنج" مديرة القسم الداخلي ومشغل الخياطة. صارمة، تغضب بشدّة وعيناها الزرقاوان تخترقنا ، كأنّها ترى الخطأ فينا قبل أن نرتكبه. كنّا نرتجف من بعيد عندما تظهر في الأفق وإن لم نكن نقع في دائرة مسؤوليّتها المباشرة.

كنا ثلاثين مراهقة في صف هائج ومائج، لم يكن الأب شكري أستاذ الأدب العربي، الكبير نسبياً في السن، قادراً على ضبطه. وقد علا ذات يوم صراخنا وضجيجنا ليطال تلميذات الصفوف العليا المجتمعات في قاعة الدراسات الواقعة في الطابق الأعلى. كُنَّ تحت إشراف ومراقبة "مير تيلدا" التي كانت آنذاك قد "تخلّت" عن مركزها في إدارة المدرسة لصالح "المير باسكال" . بعد مرور ربع ساعة على ضجيجنا، فوجئنا بها تدخل الى صفنا كالصاعقة، صارخة سلسلتها المعهودة من التأنيب والتهديد بتكاوين وجه مفزعة. كنّا نعرف العدّية الشهيرة، إلاّ أنّني كنت أسمعها لأوّل مرّة مباشرة على الهواء : "ذبيبات صغيرات (من ذبابة)... مصّاصات دماء أهلكنّ..." فلتت منّي ابتسامة ما لبثت أن التقطتها عيناها الخارقتان. فاستفردت بي وانهمرت عليّ توبيخاً وتهديداً لإعطاء المثل وتسجيل نتيجة أكيدة سيتعلّم منها الجميع. جمدت وانقبضتُ الى داخلي وسط صف مذهول، كون العقاب قد أصاب أصغرهنّ سنّاً وأعقلهنّ (و أشطرهنّ). أخرجتني "تليدا" من الصف وأجبرتني على الصعود معها الى الصالة الكبرى حيث تواجد ما لا يقلّ عن مئة تلميذة من الصفوف العليا. كنت أعرفهنّ جيّداً وهنّ أيضاً يعرفون من أنا. وما إن دخلنا حتى أعلمت الجميع عن فعلتي وسط صمت شامل وأوجه غير معبّرة . أُجلستُ على جنب ولم يكن لديّ ما أفعله سوى الإنتظار. وبعد أن انتهت فترة الدراسة أو الإمتحان وبدأت التلميذات الكبيرات يستعددن للخروج استدعتني الى المنصّة حيث كانت تجلس وختمت عقابي بتوبيخة أخيرة للتأكّد بأنّي فهمت الأمثولة. كنت لا أزال لا أعرف ما هي التهمة: أهو ضجيج الصف أم ابتسامتي العابرة. وبما أن الإحتجاج كان مرفوضاً في مدرستي وكان علينا أن نسمع ونمتثل، فكنت لا أزال أتماسك منذ حوالي ثلثي الساعة، فجاء ردّي الوحيد الممكن إنفجاراً بالبكاء على صوت عالٍ. أُصبتُ "بكريزة" كنت أُصاب بها لأوّل مرّة في فترتي الدّراسيّة. كاد العويل والشهيق يقطع نفسي وأخذت أرتجف وأختنق من شدّة الغضب المدفون. فحصل شيء أشعرني بأنني قد انتصرت عليها: إرتبكت تيلدا وأعتقد أنّها خشت أن يحصل لي مكروه، فصمتت وأخذت تربت على كتفي محاولة تهدئتي . وكلّما حاولت كان صراخي يعلو وارتجافي يزيد. فأخذتْ تتمتم بعض الكلمات المتقطّعة: "هش..هش..كفى..كفى..تعالي.. إغسلي وجهك". لا أذكر كيف انتهت الحادثة، بل أتذكّر أنّها بعد ذلك كانت تتجنّبني ولم تنظر أبداً لجهتي عندما كنّا نلتقي في بعض المناسبات. أعتقد أنّها أدركت أنني –أنا الوديعة – كنت قد انضميت الى مجموعة ضحاياها الصامتات، الثائرات على سلطتها المتهاوية.

- **قيادة المير باسكال الكريزماتية:**

عندما وصلت الى المرحلة المتوسطة من دراستي، كانت النجمة الطالعة "مير باسكال" قد حلّت محلّ تليدا وصعدت الى مرتبة مديرة المدرسة وسط انبهار الجميع، راهبات ومعلّمات وخوارنة وتلميذات وأهالي، المعجبين بمزاياها الكارزمائية المقنعة والفعّالة. هي صاحبة مقولة "soyez viriles" تتحلّى بمزايا "الرجولة" القائدة في شخصيّة أنثويّة جذّابة. كانت مديرتنا خليطاً غير مسبوق من الجمال الباهر الذي كان يصعب علينا التحديق به إلاّ بغفلة عنها، والحيويّة المندفعة من كلّ تعابيرها وحركاتها. قادنا صوتها العذب في أنشطتنا اليومية وفي المناسبات، كما قاد لسنوات كورس المدرسة في القداديس وفي الإحتفالات. إذاً مزيج من الأنوثة المشرقة و"رجولة" غير ذكوريّة رحبة ومنطلقة. تمشي وكأنّها تطير، تطأ الأرض بنصف دعسة أماميّة، وإذا خطبت فينا بالمناسبات، كانت قوة الإقناع والإحترام الذاتي تجعلها تعلو الى الأمام ثم تعود الى مكانها، آخذة إيّانا معها في حركة تأرجح دائم بين الإنطلاق والعودة ، كأنّها على وشك الإقلاع. وبين الأثنين ، الإنطلاق والعودة، عرفت مدرستنا فترة ازدهارها الأقصى، قبل المرحلة الثالثة مرحلة التقويض الذاتي (implosion)[4] والإنعطاق خارج الأسوار. بكلمة، كانت باسكال "محبوبة الجماهير" ، الكبار والصغار يحاولون كسب رضاها والإقتداء بما تطلبه وما يقتضيه احترام النظام واتّباع السلوك الحسن.

كانت "مير باسكال" على مسافة من الجميع. ربّما لأنّ إشعاعها لم يسمح لها بالإقتراب كثيراً من الكائنات الفردية خشية من إبهارهم أو حتى حرقهم. كان لي معها حادثة عابرة فهمت من خلالها نوع العلاقات الشخصية التي كانت تقيمها معنا في سياق مسؤولياتها القيادية، وفهمت أيضاُ ماذا تعني بشعارها أو مطلبها منا "كنّ رجالاً".

مثل الكثير من قليلات الحظ كنت أصاب شهرياً، ومنذ الحادية عشرة من عمري، بنوبات ألم شديد تصاحب الميعاد. وفي ذات يوم من أيام الشتاء البارد، حيث كنّا نتمم الواجبات والدروس المسائية في الصالة الكبرى التي كانت تجتمع فيها تلميذات الصفوف المتوسطة، في فترة ما بعد الصف بين الرابعة والسادسة مساء. أصبت بنوبة ألم كانت أشدّ مما كان يصيبني عادة. حاولت أن أتحمّل وأتابع الدراسة، ولكن البرد الشديد وربما التعب بعد نهار طويل أمضيناه في المدرسة، تغلّبا عليّ، فكدّني العرق، وقيل لي بعد ذلك انه أغمي عليّ. عندما استعدت وعيي، كنت ممدّدة على الكرسي المستطيل المخصص للمصابات بوعكات مفاجئة، والذي كان يوضع عادة خارج الصف أو القاعة. خجلت وارتبكت عندما رأيت "مير باسكال" واقفة أمامي، تقدّم لي كوباً من الشاي. شعرت انّه عليّ

[4] إقتراح ر.الأمير ترجمة implosion بتقويض.

أن أشرح لها ما بي وأنني لست مريضة. فحاولت أن أتمتم بعض الكلمات لم تكتمل لتصل معناها الى هذا الملاك الحارس الواقف بجانبي. ماذا أقول لها عن موضوع كنت أكيدة أنّه غير موجود في عالمها الإشعاعي، موضوع حيض، وسوائل وألوان ممنوعة وضعف وألم ، كنت لا أتكلّم عنه علناً حتى في بيتنا بيت البنات، وأبي لا يعلم عنه شيئاً. أما أمي فكانت تساعدني على تجاوز الموضوع بكثير من العاطفة وقليل من الكلام. أفهمتني "باسكال" أيضاً دون الإشارة الى السبب، إن الأمر عابر. ولم تتكرّم بالربت على كتفي للتخفيف من الألم أو بالإعراب عن شيء من الشفقة أو العطف الذي كان بلا شك سيملئني فرحاً ويخفف من وجعي. قامت بواجبها كمديرة وقائدة نمتثل بها: رعاية محايدة ووقوف الى جانبنا في أوقات الشدّة، ولكن عدم الرضوخ الى الألم أو الضعف الجسدي والتسلّح بقوّة التفوّق عل "سلبيات" أنوثتنا. وفهمت الآن أنّ صفات "الرجولة" التي كانت تدعو الى التسلّح بها هي أساساً أن نتخطى حدود أجسادنا، هذه الاجساد التي كانت تخون أحياناً إرادتنا وعزمنا. وفهمت أيضاً أنّ التعبير عن العاطفة والشفقة للضعيف او الضعيفة لن يساعده/ها على اكتساب القساوة اللازمة للإستقواء على العقبات البشريّة.

- **قيادة "مير نوتر دام دافريك" البيروقراطية**

جاءنا النموذج الثالث في القيادة من آسيا، بعد تحرّر فيتنام من الإستعمار الفرنسي وإقفال مدارس الإرساليات هناك. لم تكن "مير نوتر دام دافريك" (Notre Dame d'Afrique) ذات الإسم المقتبس من لقب مريم العذراء "سيّدتنا"، لم تكن تتميّز بشيء في مظهرها، فتكاوينها النصف آسيوية والنصف أوروبية وصوتها الأنفي الخافت والسريع، لم يوحيا بشيء. ما عرفنا عنها واكتشفناه من طريقتها في التعليم وإدارة الصف، هو مستوى علمها وذكائها الخارق وإرادتها الحديدية في العمل والإقدام. أصبحت بعد فترة وجيزة، مديرة الدراسات، وهي رتبة اقتصتها داخل مجال مديرة المدرسة "باسكال" التي تركت لها هذا الشق من الإدارة، للإنصراف الى المسؤوليات الكثيرة التي كانت تتطلّبها مدرستنا المتنامية، من علاقة مع الاهل والمحيط،، ومسؤوليات تحديث التعليم الديني، والتنسيق بين كافة القطاعات.

قيادة "مير نوتردام" كانت من النوع البيروقراطي الذي يعمل بانتظام وترتيب، دون ضجّة ولا كريزما ولا صوت يعلو ولا قامة ملفتة. هي التي ساهمت في تحويل المدرسة، بعد صدور الأمر البابوي يوحنّا الثالث عشر، وفق رسالتها الجديدة ، الى مدرسة تقنيّة لإعداد أجيال تخدم التنمية، والتوجه الى أولاد الطبقات الوسطى لإعدادهن الى سوق العمل. وكان أولى مظاهر التحوّل، إلغاء الفرق في

الألقاب بين "مير" و "سور" ، إذ عممّت تسمية "سور" على الجميع . فأصبحت الراهبات متساويات في الأخوّة من حيث اللقب ومن حيث الزيّ، فأُزيلت العلبةعن رأس "الميرات" وعمّ الحجاب أي الطرحة البسيطة على رؤوس الجميع .

وتتابعت عمليّة التحوّل التي ردّت الرهبنة الى رسالتها الأولى "خدمة الأكثر حاجة" ، فألغيت مهمّة تعليم بنات العائلات الميسورة وكذلك المدرسة الثانية الموجّهة للأقل يسراً وتحوّلت المهمة الرئيسية الى تهيئة الفتيات للتخصصات المفيدة للعمل. وانطلقت معظم الراهبات الى التعليم في القرى والأرياف البعيدة. وهكذا تمّ التقويض الذاتي التدريجي من الداخل، الذي أدّى الى ذهاب التلميذات الى مدارس أُخرى، وانعتاق الراهبات خارج الأسوار.

هذه النماذج الثلاثة من القيادة كان يمارسها عادة الذكور في مجتمعنا. لم تكن نساء بلادنا في فترة الستينات تتبوأن هذا النوع من المراكز إلاّ نادراً،باستثناء النوع التقليدي المنتشر في العائلات الكبرى حيث كانت النساء، الأمّهات أو الجدّات، تمارسن سلطة تقليدية على الأصغر سنّاً أو الأقل شأناً، سلطة لم تكن تتعدّى دائرة المنزل أو المحترف.

خلاصة: ذكورة المؤسسات الشاملة ورجولة محبّذة لبناء شخصيتنا

هل ما حاولت وصفه وتحليله بالإرتكاز على الذاكرة، هو ذكورة أم رجولة؟ أميل الآن بعد مراجعة تجربتي هذه والتعمّق شيئاً ما بها، أن أعتبر كل ما يتعلّق ببنية المؤسسة وبأنماط القيادة في مدرستي، بأنّه ذكوري، أمّا ما يتعلّق بما كانت تحاول راهباتنا ان تبثّه فينا، من قيم جديدة وإيجابية، لمساعدتنا على الوقوف ولبناء شخصية منفردة وللإنطلاق في الحياة، فهذه كانت قيم مقتبسة من قيم الرجولة الصاعدة والسائدة في المجتمعات الحديثة البعيدة عن مجتمعنا اللبناني، والتي حاولن هنّ نقلها لنا من خلال التنشئة المدرسية التي كنّ يجهدن ليلاً نهاراً لتربيتنا عليها. وكان أهلنا يشجّعون عليها، باعتبارها التربية الحديثة التي من المحبّذ ان نتلقّاها، وإن كانت متناقضة، في جوانب عديدة، مع تربيتنا البيتية والعائلية الأكثر شرقية وتقليدية.

هل ذكورة المؤسسة المدرسيّة هذه هي نموذج إستثنائي خاص بالرهبنة المذكورة، أم أنّه نموذج غربي إنتشر عالميّاً وتبنّته في ما بعد مؤسسات تربويّة محلّية خاصّة وعامّة؟

هل هناك انواع مختلفة من الذكورات خاصة بكل ثقافة وحضارة: أوروبية ، آسيوية، أميركية وعربية؟ ما يلفتني بالنسبة لذكورة مدرستي والتي أثّرت على عدد كبير من بنات جيلي من كافة الطبقات

والطوائف، أنّه يمكن تصنيفها ضمن ذكورة ما يطلق عليه علماء الإجتماع "المؤسسات الشاملة" "institutions totales". هي مؤسسات نشأت في بعض المجتمعات البشريّة عندما تحوّلت الى حضارات زراعيّة ثم في ما بعد الى حضارات تجاريّة وصناعيّة. أنشأتها هذه المجتمعات لإعادة تنشئة بعض فئات الشباب الذكور الذين ينتمون إليها، بعد اقتلاعهم الكامل، قسراً او اختياراً، من بيئتهم السابق. أعني بها الجيش والسجن والدير والرهبنة والمأوى والميتم وبعض المصحّات. وهي تقدّم خدمات شتى من نوع الدفاع عن الجماعة والصحة وتربية الأجيال والرعاية الكلّيّة للأفراد الّذين لا عائلة لهم، وتصحيح الإنحراف الإجتماعي بشكل قسري. وهي باختصار مؤسسات تعيد تنشئة المنخرطين فيها تنشئة جديدة وشاملة لتجعل منهم أشخاصاً مختلفين، بأشكال خارجيّة مختلفة عن باقي أفراد المجتمع، وبأسماء جديدة، أو أحياناً، أرقام ورتب تحلّ محلّ الأسماء. وهذه العمليّة القسريّة غير ممكنة إلاّ ضمن نظام هرمي صارم وشديد الإنضباط، يمحو من المنتمي إليها معظم ما كان لديهم سابقاً. وهي أساساً أُنشأت للذكور. إلاّ أنّ بعض الجماعات النسائيّة نقلتها وتبنّتها كما هي. ولم تستطع ان تفعل ذلك إلاّ بثمن إجتماعي باهظٍ ، أوجب عليهن محو معظم معالم الإغراء من أنوثتهن، والتخلّي عن معظم ميزات النساء، كالعلاقة بالذكور، والإنجاب، والتعبير عن الحنان والعاطفة، والعلاقة الحميمة بالجسد، والموهبة المميّزة على التفاعل والتواصل الإجتماعي.

أما فيما يتعلق بالرجولة ، أي المزايا والصفات المحبّذة إجتماعياً والتي غالباً ما يتسلّح بها الذكور في المجتمع، كانت الراهبات قد استعارت وتبنّت الكثير منها لإنجاح مشروعهنّ الشخصي والجماعي في المدرسة والرهبنة . تمّت هذه العمليّة القيصرية داخل الأسوار وبعيداً عن الأنظار، أنظار المجتمع وأنظار الذكور. فبعد أن تخلّين عن معظم سمات الأنوثة، الجنسية والعاطفية، التي تُوظّفُ عادة لجلب الذكور والإنجاب وجمع العائلة ورعاية الأطفال، بعد هذا "الإفراغ" الذاتي والإجتماعي، استعرن من عالم الذكور "رجولةٌ" ما، ساعدتهن على إملاء الفراغ وبناء شخصية جديدة تبدو مكتملة إنسانياً . وُظِّفت هذه الشخصيّات المميزة لبناء مؤسّساتهّن الشاملة وتأدبة رسالتهن الصعبة، كما حدّدتها لهن "أمنا الكنيسة"، في خدمة الله وتعليم البشر.